

الإمامة وفتيل الفتن

أ.د/ طه جابر العلواني

ارتبطت معظم الفتن التي برزت في تاريخنا منذ البداية بقضية الإمامة أي رئاسة الدولة، وما اضطرع الناس على شيء ولا سفكت الدماء في شيء كما حدث في قضايا الصراع على الإمامة، ومع أن سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- تلا علينا القرآن كله منبهاً إلى القيم والمقاصد التي ينبغي أن تقوم عليها الإمامة ونظام الحكم لكنه لم يتلو علينا في كتاب الله ولم يعلمنا شيئاً كثيراً عن أنظمة الحكم وتفصيلها ودقائقها وكيفية إقامتها كما لم يفعل ذلك سيدنا إبراهيم من قبل ولا نوح اللهم إلا ما كان من بعض أنبياء بني إسرائيل الذين خضعوا لحاكمية إلهية لها مسوغاتها الشرعية والحياتية، ليس هذا موضع تفصيلها، واستطاع الأئمة المهديون إقامة خلافة على منهاج النبوة هي الخلافة التي عرفت بالخلافة الراشدة التي أقامها الراشدون الأربعة بمستويات مختلفة ثم سرعان ما انقلب عليها بنو أمية وتالت الانقلابات على الانقلابات واضطرعت الأسر ذات العصبية عليها وانتهت الشورى وحيدت القيم، وانتقلنا من طور إلى طور بعيداً عن الأسس التي رسمها القرآن المجيد لبناء الأمة والمحافظة على الملة والقيام بأعباء الدعوة، حتى بلغ الحال في عصرنا هذا ما بلغه وصار الناس يعيشون بعيداً عن القرآن والأهداف التي جاء لتحقيقها والقيم والمقاصد التي نزل لإرساء دعائمها ويتحدث الناس اليوم عن شيء يسمونه دستور المدينة ودولة المدينة؛ ليجعلوا من ذلك سابقة وأساساً ومنطلقاً ودليلاً يدل على ضرورة إقامة الدولة وبناء الحكومة وما إلى ذلك ولا ينكر أن تنظيم الحياة لأي مجموعة من الناس يستلزم أن يكون لهم دولة وحكومة وما ينظمون به شئونهم ويديرون به نظم حياتهم ولكن هل هناك شكل محدد معين لا بد أن تقام الدولة بمقتضاه لا يجوز أن يُذهب إلى غيره أو ينصرف إلى سواه أو أن ذلك أمر يدخل في عملية تنظيم الحياة وأنتم أعلم بأمر دنياكم ما دامت القيم محفوظة والمقاصد والأهداف متحققة.

هذا ما نود أن نلقي عليه بعض الضوء.

أول فتن التاريخ هي فتنة إبليس لسيدنا آدم:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾
(الأعراف: 27)

الآيات التي ذكر فيها لفظ الفتنة:

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَخُذُوا الصَّلَاةَ مِنَّا بِحَقِّهَا وَإِن كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَنَزَّلْنَا عَلَيكُم الْكِتَابَ وَالْحَقُّ بِغَيْرِ ذَلِكُمْ أَكْبَرُ ۚ ﴾ (البقرة: 102)

﴿ وَاقْتُلُواهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتَهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُواهُمْ فِي بَيْتِهِمْ فَالتَّوْبَةُ عَلَيْهِمْ إِن كَانُوا فَاعِلِينَ ۚ ﴾ (البقرة: 191-192)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَمَا يُمِمْتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: 217)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: 7)

﴿ سَنَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوهُ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْزِلُوا لَوْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: 91)

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِذْ حَفِظْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (النساء: 101)

﴿ وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ (المائدة: 49)

﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: 71).

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام: 22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: 22-23)

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (الأنعام: 53)

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (الأعراف: 155)

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال: 25) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: 28)

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال: 39).

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال: 73)

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ* وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَتَبَطَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ* لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة: 45-47)

﴿ لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (التوبة: 48)

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ* أَوْلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (التوبة: 125-126)

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ* فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (يونس: 84:85).

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل: 110)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: 60).

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ (الإسراء: 73).

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ (طه: 40).

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ (طه: 85).

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (طه: 90).

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقْنَاكَ مِنْ خَيْرٍ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه: 131).

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (الأنبياء: 111)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج: 11)

﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (الحج: 53).

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: 63).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان: 20).

﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (النمل:47) ﴾
﴿ (النمل:47).

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ
اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت 2:3).

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ
مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ آلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ (العنكبوت:10).

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ (الأحزاب:14)
﴿ أَدْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ (الصفوات:62-63)

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ﴾ (ص:24).

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (ص:34).

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:49).

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ (الدخان:17).

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (الذاريات 13:14).

﴿ إِنَّا مُرْسَلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِقْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ (القمر:27)

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ
حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (الحديد:14).

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (المتحنة:5)

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التغابن:15).

﴿ وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (الجن: 16-17).

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ (المدثر: 31).

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (البروج: 9) إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ (البروج: 10).

الفتنة في اللغة:

جاء في المعجم الوسيط: (الفتنة) الاختبار بالنار والابتلاء وفي التنزيل العزيز: ﴿ .. وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. ﴾ (الأنبياء: 35). والإعجاب بالشيء والاستهتار به والتدله بالشيء والاضطراب وبلبله الأفكار وفي التنزيل العزيز: ﴿ .. فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ .. ﴾ (آل عمران: 7). والعذاب وفي التنزيل العزيز: ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (الذاريات: 14). والضلال وفي التنزيل العزيز: ﴿ .. وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا .. ﴾ (المائدة: 41). وجاء في تاج العروس: الفِتْنَةُ بمعنى الخِبرَةُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ (الصفات: 63)، أي خِبرَةٌ.

والفِتْنَةُ: إعجابك بالشيء، ومنه قوله (تعالى): ﴿ .. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (يونس: 85)؛ أي لا تُظهِرْهُمْ علينا فيُعجبوا ويظنوا أنهم خَيْرٌ مِنَّا، والفِتْنَةُ هنا إعجاب الكفار بكفرهم. والفِتْنَةُ: الضَّلَالُ.

والفِتْنَةُ: الكُفْرُ؛ ومنه قوله (تعالى): ﴿ ... وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ... ﴾ (البقرة: 191). والفِتْنَةُ: الفُضِيحَةُ؛ ومن قوله (تعالى): ﴿ .. وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ .. ﴾ (المائدة: 41)؛ أي فُضِيحَتَهُ، وقيل: كُفْرَهُ.

والفِتْنَةُ: العذابُ نحو تَعَذِيبِ الكُفَّارِ صَعَفَى الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ .. أَلَا فِي الْفِتْنَةِ .. ﴾ (التوبة: 49)؛ أي فِي الْعَذَابِ وَالْبَلِيَّةِ؛ وقوله (تعالى): ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ .. ﴾ (الذاريات: 14)؛ أي عَذَابِكُمْ.

وَالْفِتْنَةُ: الإِضْلالُ؛ نَحْوُ قَوْلِهِ (تعالى): ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ (الصافات:162)؛ أَيُّ مُضِلِّينَ إِلَّا مِنْ أَضَلَّهُ اللهُ (تعالى).

وَالْفِتْنَةُ: المِخْنَةُ؛ عن ابن الأعرابيِّ. ومنه قَوْلُهُ (تعالى): ﴿... وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت:2)؛ أَيُّ لَا يُمْتَحَنُونَ بما يَبِينُ حَقِيقَةَ إِيْمَانِهِمْ.

وَالْفِتْنَةُ: الأَوْلَادُ أُخِذَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ (تعالى): ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ... ﴾ (الأنفال:28).

وقال الأزهريُّ وغيره: جِماعٌ معنَى الفِتنَةِ الإِبْتِلاءِ والامْتِحانِ والاختِيارِ، وأصلها مأخوذٌ مِنَ الفِتنِ، وهو إذابة الذهب والفضة بالنار لتمييز الرديء من الجيد.

الخلاصة:

من خلال كل المفاهيم المختلفة السابقة لمعنى الفتنة يتضح أنها هي العامل أو المؤثر الذي من خلاله يتبين الحق من الباطل، وقوي الإيمان من ضعيفه، وهي كشف للمعدن الحقيقي للشيء وليس للصورة الظاهرة، فالصورة الظاهرة كثيراً ما تخدع أما الباطن فهو الأصل، والفتنة غالباً ما يكون وراءها درس للإنسانية جمعاء من بعده، فمن الفتن ما تستمر آثاره مع امتداد البشرية، والفتنة معناها لا يكمن في المعنى القريب بل لا بد للانتباه لما وراء المعنى القريب والحدث نفسه، وهي ليست نهاية المطاف فلإنسان أن يرجع ويعود ويتوب إلى ربه إن كان ما زال في العمر بقية ويتعلم منها ويأخذ معه العبرة والعظة والرسالة الربانية.

وأول فتنة ابتليت بها البشرية هي فتنة إبليس لآدم -عليه السلام- حيث أغراه بالأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه، قال (تعالى): ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:35)، وقال (تعالى): ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسِيٍّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنْتَ لَا تَطْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتِنُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (طه: 115-124).

وهذه القصة مثال من أمثلة الإغراءات الإبليسية لبني البشر، ولا يقتصر معناها على هذا الحدث فقط بل يفضح الله (جلَّ شأنه) إبليس أمام البشر في كونه لا يرغب لهم الخير وأنه ساع بلا شك بكل قوته على إضلال البشر الذين طلب الله منه السجود لأبيهم، وأن خطته واحده مع الأب ومع الأبناء، وأوضح (تعالى) للبشرية نموذج لوسائل إبليس ووضع الخطوط العريضة والقاعدة الكلية لبني البشر ليقبسوا على أساسها علاقتهم مع إبليس وجنده. والمعنى الذي وراء هذه القصة مستمر باستمرار البشرية ولا بد لهم من أخذ العبرة والعظة منها وجعلها سلاح ودرع لمواجهة عدوهم اللدود.

ومن القصص الكبرى في الفتن في محيط المسلمين والتي استمر أثرها واتسع وعانى المسلمون منها قديما وحديثا وما زالت تتكرر بنفس أفكارها ومراحلها، وهي: قننة تفرق المسلمين إلى طوائف وفرق يكفر ويعادي كل منها الآخر، والتي بدأ فتيلها الأول بعد مقتل عثمان -رضي الله عنه- وهي التي عرفت في كتب التراث بالفتنة الكبرى، وترجع بذورها الأولى لما بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما ذكرت بعض الكتب، حيث ظهرت مجموعة رأت أن الأولى بخلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واحد من أهل بيته وأولاهم بذلك هو علي -كرم الله وجهه- أو بسبب ما أشاعه ابن سبأ بأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وصى لعلي -كرم الله وجهه- نصا، ولكن سياسة الخليفين أبو بكر وعمر اللتان جمعتا بين القوة والرحمة والفتنة استطاعت أن تستوعب المسلمين، وبدأت تظهر نزعات الاختلاف بقوة وتشتد أكثر فأكثر في عهد الخليفة عثمان بن عفان لأسباب كثيرة منها: سماحه كبار المهاجرين والمجاهدين الأولين بالذهاب إلى الأمصار مع ما يحملونه من نقد للحكام ولأنظمتهم. اشتهاه سيدنا عثمان بحبه لأقاربه وتوليته في مناصب الدولة واستشارتهم في كثير من شؤونها؛ فاتهم بالمحاباة لأهله على حساب باقي المسلمين. ومن أسباب اختلاف المسلمين عليه أيضًا ما اتسم به من لين مع الولاة وعدم الحزم معهم وخاصة في معاملتهم مع الرعية، وتوليته لمن كان النبي قد أباح دمه كـ "عبد الله بن سعد بن أبي السرح". ومن الأسباب أيضا وجود بعض الطوائف الحاقدة على الإسلام وأهله سواء دخلوا في الإسلام ظاهراً أم بقوا على ديانتهم الأصلية.

تضافرت كل هذه الأسباب وانتهت بمقتل عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وولي علي -كرم الله وجهه- الخلافة وما لبث أن ظهر من يطالب بدم عثمان قبل استقرار البالد، وحدثت موقعنا الجمل التي ضمت السيدة عائشة وطلحة والزبير -رضوان الله عليهم- وهم الذين ذهبوا إلى البصرة لتنفيذ القصاص والإصلاح بين المسلمين، والتي انتهت بعد تدخل المتربصين للإسلام وأهله (الطرف الثالث) بنشوب حرب بين الفريقين -والتي لم تكن محل النظر- انتهت بانتصار جيش سيدنا علي وقتل الزبير وطلحة -رضي الله عنهما- وإعادة سيدنا علي للسيدة عائشة لبيتها معززة مكرمة، وصفين التي كانت بين جيشي علي ومعاوية -رضي الله عنهما- لهذا السبب، وفي موقعة صفين انتهت بالتحكيم حيث رفع جيش معاوية -رضي الله عنه- المصاحف وتحكيم كتاب الله بينهما، وترتب على هذه الموقعة انقسام المسلمين

إلى شيعة علي -كرم الله وجهه- وخوارج رفضوا التحكيم وكفروا كل من عليّ ومعاوية وكثير من الصحابة، والمرحئة الذين أرجئوا أمر عليّ و معاوية وطلحة والزبير وعائشة إلى الله ليحكم فيه.

لماذا سقنا هذين المثالين من الفتن؟

قال (تعالى): ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: 111).

فالقصاص القرآنية بصفة خاصة لم تأتي للتسلية وإنما حملت معها العبر والعظات للبشر، كل قصة تحمل معنى ورسالة، والجميل في القصاص القرآني أن المصدر هو الله (تعالى) ولا تحمل معاني كثيرة، فهذا خير رغب الله فيه وذلك شر رهب الله منه.

وقصاص التاريخ بصفة عامة لنا فيها أيضا عبرة وعظة لمن كان له قلب، وهاتان القصتان من الفتن تحمل الأولى معنى العلاقة الأبديّة بين إبليس والبشر ولا يكون العلاج إلا بمخالفته واتخاذ عدو، والثانية تلفت نظر المسلمين إلى البعد عن التعصب واتباع الأهواء، والحذر ممن يحكيون لنا الدسائس في الظلام ويرون في الإسلام عدوهم اللدود، والترقب حتى يتضح الأمر والبحث والتثبت. وهذا المعنى نخرج به بعد أن نخلي القصة من مشاعر الكاتب وانتمائه، فقصة الفتنة الكبرى كتبت بطرق مختلفة، رأيت في كل مرة أقرأها فيها شخصية الكاتب وانتمائه، فإن قرأتها لكاتب شيعي أرى فيها روح التشيع والانتصار لسيدنا علي واللعن والسب في حق باقي الصحابة واتهامهم بالخيانة والطمع في مصالح خاصة وخبث النفوس، وإن قرأتها لكاتب ذو انتماء ثان تراه يقف على الحياد ويحاول أن يبرئ ساحة كل الصحابة من الخطأ ويلتمس لهذا وذالك الأعذار، وثالث يميل إلى صف سيدنا عليّ، وإن كان يحاول أن يكون على الحياد. وهكذا.

فأحداث التاريخ تتكرر وأحيانا بنفس تفاصيلها، فعلينا أن ننتبه ولا نتخذ غير الله ملجأ، ولا يكون لنا دافع للانطلاق غيره، ونضع كل فعل في مكانه المناسب دون تضخيم أو تحويل أو تغيير في حجمه، ولنلجأ إلى النقاش ونتحرى من صاحب الفكرة عن فكرته، فلربما نكون فهمنا خطأ فيصحح لنا أو غابت عنه بعض النقاط فنصحح له. ونقرأ ما حول الحدث ومن خلفه، فلربما يكون كلانا مربوط بخيط يحركه ثالث.

وإني لأعجب من هؤلاء الذين في لحظة يأخذون موقف بمع أو ضد، أين نحن من قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: 6) ومعظم ما نسمع الآن ويطلب منا الانتصار له أو عليه يحتاج منا إلى تثبت وبحث وبذل جهد، فإنها أيام فتن، وعلينا أن نتحرى قبل أن نتحيز إلى فئة ونتنصر لها. والله من وراء قصد السبيل.